

الغرب الإسلامي في العصر الوسيط (8م _ 12م)

دراسة حول: (حدود المجال، العنصر البشري، والفلاحية أنموذجا)

The medieval Islamic West (8_12 CE) Study on: (field boundaries, the human factor, and peasant agriculture as a model)

محمد / زينب محمد حامد *

جامعة نواكشوط العصرية - موريتانيا

zeynebou.medhamed@gmail.com

History of the article/معلومات المقال		
Published/القبول للنشر 2020/06/30	Accepted/المراجعة 2020/03/15	Received/الإرسال 2020/01/09

الملخص:

إن مجال الغرب الإسلامي في العصر الوسيط يبقى معتمدا على التقسيم السياسي، ففي القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، يتمثل في المناطق التي بسط عليها المرابطون نفوذهم انطلاقا من الصحراء إلى الأوسط والأندلس، وفي القرن 6هـ / 12م فإن مجال هذا الغرب هو ما سيطر عليه الموحدون (من المغرب الأقصى إلى الأندلس وطرابلس) أما مجاله في القرن 7هـ / 13م هو ما بسطت عليه الجيوش المرينية نفوذها. بينما الكثافة البشرية السكانية كانت دائما مرتبطة بالأراضي الصالحة للزراعة أو بالقرب منها مما ينتج عنه استغلال الأرض وكثرة الإنتاج والتبادل. أما الإنتاج الفلاحي بمنطقة الغرب الإسلامي كان يلبي حاجيات السكان، وهذا ما لمسنه من خلال المصادر من تزويد المناطق الريفية للمناطق والمدن الأهلة بالسكان بفائض إنتاجها الفلاحي سواء تعلق الأمر بالمنتجات على اختلاف أنواعها أو بالمواشي واللحوم، فابن حوقل عندما يتحدث عن موسم الدجاج بالمغرب الأوسط يقول: "وبها من رخص الأسعار أيضا في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي ما يغرق غيرهم ممن يجاورهم، وبها من الأشجار والتمر والتين خاصة العظيم الجسيم ما يحمل منه إلى البلاد النائية"¹، فقد تعدى الإنتاج حدود منطقة الغرب الإسلامي إلى السودان والأندلس والمشرق، مما يؤكد

* المؤلف المرسل/The author of the sender

لنا بأن الفلاحة المغربية في العصور الوسطى مرتبطة بالتجارة وثيق الارتباط، وذلك لبروز السمة المميزة للاقتصاد المغربي ابتداء من القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، والتي تتمثل في تلك الثنائية الاقتصادية، التجارة- الفلاحة²، وأن كثيراً من المواد الفلاحية أصبحت بضائع أساسية في قائمة التبادل التجاري خاصة بالنسبة للتجارة الصحراوية.

الكلمات المفتاحية: الغرب الإسلامي، العصر الوسيط، العنصر البشري، التجارة الصحراوية.

Abstracter:

The field of the Islamic West in the medieval period remains dependent on the political division. In the fifth AH / 11th century CE, it is represented in the areas where the Almoravids extended their outreach from the desert to the middle and Andalusia. The Almohads (from the Far Maghrib to Andalusia and Tripoli), and its field in the AH 7th / AD 13th century is what the Marinid armies simplified. While the human population density has always been associated with arable land or near it, which results in the exploitation of the land and the abundance of production and exchange. As for agricultural production in the Islamic West region, it met the needs of the population, and this is what we felt through the sources to provide the rural areas of populated areas and cities with surplus agricultural production, whether it comes to products of various kinds or to livestock and meat. Ibn Hawqal when he talks about the chicken season in the Central Maghreb says: And by the cheapness of prices also in fruits, food, restaurants, wheat, barley, dairy and livestock, what drowns others who are close to them, and by trees, dates and figs, especially the great and huge, that carries it to remote countries. That Moroccan agriculture in the Middle Ages is closely related to trade, due to the emergence of the distinctive feature of the Moroccan economy starting from the third century AH and the ninth century AD, which is represented in that economic dualism, trade-agriculture, and that many agricultural materials have become basic commodities in the list of trade exchange especially for For desert trade.

key words: The Islamic West, medieval, The human element, Desert trade.

تمهيد:

تجلى أهمية هذه الدراسة التي يعالجها المقال، إذا وضعناها في عين الاعتبار لحدود المجال، والعنصر البشري، والفلاحة، بأنها عرفت في العصر الوسيط بالغرب الإسلامي تحولات عميقة،

ومنعطفات حاسمة، ولا غرو فقد أصبح إيقاع المجتمع خلال هذه الحقبة التاريخية أكثر سرعة بسبب دخول عناصر إثنية جديدة، وبالمثل أسفرت الهجرات والتحركات القبلية الواسعة عن تغيرات في الخريطة الديمغرافية، وساهمت في خلق مجالات جغرافية جديدة. هذه التحولات العميقة هي ما تحاول الدراسة المقالية الوقوف عندها، معتمدة في ذلك على قراءة تمتد عبر مساحات معرفية متنوعة، ومنهج يقوم على رصد حدود المجال والعنصر البشري والفلاحة بالغرب الاسلامي في العصر الوسيط، وذلك من خلال الإجابة عن أسئلة الدراسة وهي كالتالي:

— ما هي الحدود المجالية لهذه المنطقة " الغرب الإسلامي " في العصور الوسطى؟

— كيف تشكلت الكثافة السكانية البشرية بالغرب الإسلامي؟

— ما هي خصائص ومميزات الفلاحة بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط؟

أولا/ فما هي الحدود المجالية لهذه المنطقة "الغرب الإسلامي" في العصور الوسطى؟

إن الإشكالية التي تواجه كل باحث لدراسة هذا الجزء من العالم الإسلامي هي اشكالية التحديد، فما التحديد المجالي لهذه المنطقة " الغرب الاسلامي " في العصور الوسطى؟ هل المجال الذي كان يشغله كان قارا أم أنه خضع لتغييرات؟ أمام حدة هذه الاشكالية التي لا يمكن الجزم فيها نرى من الضروري إلقاء نظرة موجزة على ما كان يمثل هذا المصطلح عند الرحالة الجغرافيين والاعباريين في العصر الوسيط، فكلمة "مغرب" هي اسم إضافي يدل على مكان ما بإضافته إلى جهة "مشرق"³. لقد اكتسب هذا التحديد الجغرافي "الغرب الإسلامي" تفسيرات تارة جغرافية وأخرى سياسية، بحيث أن المصادر أعطت تعريفات مختلفة حول هذا المفهوم، وأمام هذا الاختلاف أرجع ابن خلدون ذلك إلى تفسيرين: تفسير الرحالة الجغرافيين، والتفسير الجاري به في زمن ما⁴. إن تفسير الرحالة الجغرافيين اعتمد على ثلاث أسس مختلفة حددوا من خلالها المجال الذي يمثل هذا الغرب الاسلامي:

— من الرحالة الجغرافيين من تبنى الاعتماد على الحواجز الطبيعية، فقد أشار ابن حوقل إلى أن النيل هو الحد بين المشرق والمغرب⁵، وذهب الجغرافي ابن سعيد إلى أنه كلما يوجد شرق مدينة الاسكندرية وخليج القسطنطينية فهو ينتمي إلى المشرق الإسلامي، وعلى هذا الاساس تصبح

مصر هي بداية منطقة الغرب الإسلامي والشام باب المشرق الإسلامي⁶، كما أن ابن خلدون يشير إلى أن الحد الفاصل بين المغرب والمشرق هو بحر القلزم⁷.

- من الرحالة الجغرافيين من ركز على التركيب البشري، فمجال الغرب الإسلامي، عند هؤلاء هو ما كان "ديار البربر ومواطنهم"⁸ ومن خلال هذا التحديد يكون مجال منطقة الغرب الإسلامي هو الممتد من طرابلس إلى البحر المحيط (الأطلسي حاليا) وتخرج الاندلس من هذا التحديد.

- من الجغرافيين من اعتمد على التحديد على الاوضاع الادارية والسياسية، فالإصطخري الذي كتب في وقت انتقال الأندلس عن الخلافة العباسية أصبح الشمال الإفريقي موطن نزاع بين الأمويين بالأندلس والفاطميين بإفريقية نجده يقسم "المغرب" إلى مغربين: إفريقي واندلسي⁹.

وفي القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي نجد البكري في تحديده للمنطقة يحددها من برقة إلى طنجة ومن البحر المتوسط إلى الرمال المتصلة بأرض السودان¹⁰، ويشير ياقوت الحموي إلى أن المرابطين لما بسطوا نفوذهم من تلمسان إلى المحيط الأطلسي، ومن الصحراء الإفريقية إلى جبال الشارات الأندلسية ظهر تعريف جديد يحدد المنطقة، والذي أصبح يقتصر على أراضي الدولة المرابطية¹¹.

من خلال هذه المعطيات التي قدمتها المصادر لتحديد منطقة الغرب الإسلامي نستشف مختلف الرؤى التي اعتمدت على مرتكزات تارة تكون طبيعية وأخرى جغرافية أو سياسية. ويبقى الارتكاز على المعطى السياسي هو الطاغي، بحيث أن تفسيرات هؤلاء الرحالة الجغرافيين لم تكن بعيدة عن حالة الاوضاع السياسية التي في عصرهم. وابن حوقل كتب مؤلفه في وقت لم تعد للدولة العباسية سلطة على مصر وما يقع غربها، فانقسم العلم الاسلامي إثر ذلك إلى مشرقى ومغربى، وباتت مصر هي الحد الفاصل بينهما. أما ابن خلدون فيشير إلى أن التعريف الذي قدمه كان هو العرف الجاري به العمل في زمنه، هذا مع العلم أن مجال منطقة "الغرب الإسلامي" في عصره أصبحت فيه جزيرة الاندلس لا تمثل إلا قطعة أرض صغيرة.

أمام هذا الاختلاف فأي تحديد يمكن أن نتبناه؟ هل هو كل المجال الذي يقع غرب مصر والذي سيشمل شمال القارة الإفريقية التي تتضمن حاليا البلاد الليبية بولايتها الثلاث (برقة- طرابلس - فزان) وتونس، الجزائر، وأخيرا المغرب الأقصى الذي يمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى تخوم

السينغال والنيجر¹². أم بلاد المغرب العربي حاليا (تونس، الجزائر، المغرب)¹³. وهكذا لتسهيل هذه الدراسة يبقى الاعتماد على التقسيم السياسي الذي عرفه هذا المجال في العصر الوسيط، لذا سيكون مجال الغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، يتمثل في المناطق التي بسط عليها المرابطون نفوذهم انطلاقا من الصحراء إلى الأوسط والأندلس، وفي القرن 6هـ/ 12م فإن مجال هذا الغرب هو ما سيطر عليه الموحدون (من المغرب الأقصى إلى الأندلس وطرابلس) أما مجاله في القرن 7هـ/ 13م هو ما بسطت عليه الجيوش المرينية نفوذها¹⁴.

ثانيا/ كيف تشكلت الكثافة السكانية البشرية بالغرب الإسلامي؟

ستهتم هذه الدراسة بالعناصر القبلية التي استوطنت منطقة الغرب الإسلامي نظرا لكونها النشاط الاقتصادي المستمر، وقد تعددت هذه العناصر التي استقرت بالمنطقة وانضافت بذلك إلى القبائل البربرية التي تمثل النواة الأصلية للسكان، ومن هذه العناصر: العرب والأندلسيون واليهود والنصارى والعبيد، وقد اتسمت حركة السكان في الغرب الإسلامي بالهجرة باستمرار، فلا بد إذن من معرفة مواطن استقرار القبائل.

1- العنصر البربري الأصيل

كما هو معلوم يتكون البربر من قسيمين عظيمين هما: البتر والبرانس، ولا يعرف مصدر هذا التقسيم، ومن أهم قبائل البتر زناتة ولواتة ومطغر ومديونة، أما قبائل البرانس فهي صنهاجة وأورية ومصمودة كتامة، لكن أكثر هذه القبائل أهمية في تاريخ المغرب هي زناتة من البتر وصنهاجة ومصمودة من البرانس¹⁵. وعلى العموم يعتبر البربر أكثر السكان انتشارا في الغرب الإسلامي من حيث العدد، وهم يسكنون مجالين كبيرين هما:

أ- مجال المغرب الأدنى الأوسط

في المجال كانت تستوطن قبائل صنهاجة الشمال التي افترق ملكها إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بولكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حماد بن بولكين أصحاب القلعة¹⁶ وتجدر الإشارة إلى أنه من هذا المجال انطلقت قبائل بنو غانية الصنهاجية في القرن السادس الهجري ضد الموحدون كما عرفت المنطقة أيضا في تاريخها الهلالي الذي اكتسح بوادي هذا المجال، وعلى إثره

لجأت القبائل البربرية إلى السواحل وإلى المناطق الجبلية الحصينة في بلاد بني حماد¹⁷. وإلى جانب قبائل صنهاجة كان هذا المجال أيضا قبائل بربرية أخرى وهي قبائل زناتة التي تأثرت هي الأخرى بالغزو الهلالي إلى حين وصول الموحيدين إلى المنطقة فتحالفت معهم بعض بطونهم كبني باديس وبني عبد الواد وبني توجيل ضد بني مرين الذين لم يجدوا بدا من الاتجاه جنوب حتى أصبحت ديارهم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري بين قبلة الزاب وسجلماسة¹⁸.

ب- مجال المغرب الأقصى والصحراء

من ضمن القبائل التي كانت تستوطن هذا المجال، قبائل غمارة التي تنتسب إلى مصمودة والتي استقرت في الجزء الغربي من جبال الريف¹⁹، محاورة لذلك قبائل صنهاجة بنفس المنطقة إلى الشرق، كما استوطن قسم آخر من صنهاجة بالأطلس المتوسط وساحل المحيط الأطلسي، بينما نزلت برغواطة التي تنتسب هي الأخرى إلى المصامدة، بسائط بلاد تامسنا²⁰، وبلي هذه القبائل في جبل درن قبائل المصامدة²¹.

أما في أقصى الجنوب فنجد قبائل صنهاجة الجنوب المعروفين بالملثمين والذين يؤلفون مجموعة متعددة من القبائل التي تكونت منها دولة المرابطين، فقد استوطنوا في الصحراء جنوبا وعنهم يقول ابن خلدون: "هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب... فنزلوا من الريف الحبشة حوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجازا... وعفوا في تلك البلاد وكثروا وتعدّدوا قبائلهم"²². ومن أهم قبائلهم:

- **لمطة وجزولة**: وقد كانت مضاربهم بالمنطقة الممتدة من جبال الأطلس حتى وادي لول يقول البكري: "ومن وادي سوس إلى مدينة نوات ثلاث مراحل في عمارة جزولة ولمطة، ومدينة نول آخر مدن الإسلام وهي أول الصحراء"²³.

- **لمتونة**: من حدود منطقة جزولة ولمطة حتى واد نوال موغلة في الصحراء شرقا إلى الطريق التجاري الرابط بين غانة وسجلماسة.

- **كدالة**: في الجنوب حتى مصب نهر السينغال والتي تحتوي أراضيها على بعض مناجم الملح:

- **مسوفة**: ما بين سجلماسة وأود غست.

كما أن بعض المناطق في المغرب الأقصى كانت تحت طاعة زناتة كسجلماصة ودرة وتادلة وسبتة، وقد كان للفتح المرابطي تأثير كبير على مواطن القبائل ومراكزها فاستقرت صنهاجة الصحراء في سهول المغرب الأقصى ونزلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش، ويصور صاحب الحلل الموشية كثرتهم وانتشارهم في المغرب الأقصى. " فوفد عليه منهم جموع كثيرة وكثروا بكل مكان" ²⁴ بعد أن قام يوسف ابن تاشفين باستقطابهم، ولما قامت الدولة الموحدية سيطرت القبائل المصامدة على ما كان في قبضة المرابطين الصنهاجيين من سهول، أما عن العنصر البربري في جزيرة الاندلس فقد دخلها مع بداية الفتح الإسلامي حيث تدفقت جموعهم في الاندلس وكانت أغلبية موجاتهم الأولى تتكون من الزناتيين، وعند انحلال الدولة الأموية في الاندلس تكاثرت الهجرة البربرية إلى المغرب وكان لصنهاجة دور بارز فيها ²⁵.

2- العنصر العربي

وجد العرب في مدن الغرب الإسلامي مع الفتح الإسلامي دون البوادي، وتضاعف عددهم في آخر الخلافة الأموية عندما حاول الأمويين قمع ثورات البربر ونشر الإسلام، ولم يتمكن العرب من تغيير تركيب سكان المغرب الإسلامي وأريافه إلا بعد منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي عندما أرسل الفاطميون قبائل بني سليم للانتقام من الدولة الزيرية الصنهاجية في إفريقية، وقد اقتسمت هذه القبائل بلاد إفريقية، زغبة وباح في برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال في تونس وما يليها غربا فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب ²⁶. وقد استعصت الجبال على العرب الهلاليين فاستقروا في الساحل التونسي وبلاد الجريد وبسائط تل الأطلس الشرقي بين قسنطينة والقل وفي خراج باجة وميلة ²⁷.

بعد أن تمكن عرب بني هلال إلى القضاء على ملك بني زيري بإفريقية وهددوا الدولة الحمادية تطلّعوا إلى المغرب الأوسط، ولكن قيام دولة المرابطين وحاميتها القوية المستقرة بتلمسان جنب المغرب الأوسط والأقصى إلى حين— مصير إفريقية وشر القبائل العربية ²⁸، وهكذا فانتشار هذه القبائل العربية الهلالية في كل بلاد المغرب الإسلامي لم يتم إلا بعد قيام الدولة الموحدية حيث سيعمل الموحدون على نقل بعض بطون هذه القبائل إلى المغرب الأقصى وذلك لما ثار بنو غانية على الموحدين بإفريقية وايدتهم بعض هذه القبائل مما اضطر يعقوب المنصور

الموحدي إلى نقلهم إلى المغرب الأقصى بعد اخضاعهم. فنزلت رياح من بني هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى المحيط الأطلسي حيث استقرت. ونزلت قبائل الخلط وقبائل جشم بلاد تامسنا²⁹، بينما نزلت قبائل بني جابر بتادلة.

وهكذا تمكن يعقوب المنصور ومن بعده الناصر من مراقبة هؤلاء الأعراب والاستفادة منهم عسكريا واقتصاديا، لكن سلبية هذا الحدث في الواقع كانت أشد خطورة على المخزن الموحي لأن انتفاضة بني غانية لم تنته بهذا الفعل التاريخي، إضافة إلى أن هؤلاء القادمين إلى المغرب الأقصى من الأدنى قد زرعوا الفوضى في مناطق استقرارهم واغاروا على مراكش أكثر من مرة مما يعتبر تاريخيا أحد الأسباب المؤدية إلى انهيار المخزن الموحي، أما قبائل زغبة اخوة رياح التي حافظت على ولائها للموحدين " فقد صاروا يدا واحدة مع بني باديس من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية ... واتصلت مجالاتهم ما بين المشبلية وقبلة تلمسان في القفار "³⁰.

وهناك عرب بني معقل الذين دخلوا هم أيضا رفقة الهلاليين لقلعة عددهم ونزلوا بمنطقة التي تلي ملوية وتافاللت وجاروا زناتة حتى كثر عددهم وعمروا صحاري المغرب الأقصى³¹. وهم ينقسمون إلى ثلاثة بطون³²:

- ذوي عبيد الله ما بين تلمسان إلى تاوريرت.
 - ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة ويفرضون سيطرتهم على ملوية كلها إلى سحلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل مثل تازة وفاس وبلاد تادلة.
 - ذوي حسان ومواطنهم من درعة إلى البحر المحيط ويسيطرون على السوس الأقصى.
- وبالإضافة إلى القبائل البربرية والعربية كانت منطقة الغرب الإسلامي تضم عناصر أخرى كالنصارى واليهود المستقرين في المدن الكبرى كمدن الساحل التونسي ومدينة فاس التي كانت مركز يهوديا منذ تأسيسها³³. كما استقر النصارى أيضا في بلاد الجريد بإفريقية منذ أيام الفتح الإسلامي، وظلوا هناك حتى أيام ابن خلدون أما في جزيرة الأندلس فقد كان النصارى أكثر من اليهود.

خلاصة: إذن كل من القبائل العربية والبربرية الزناتية والصنهاجية والصحراوية يتميزون بغلبة الترحل والحياة الرعوية في أوساطهم، بينما تسود الحياة الاستقرار قبائل المصامدة التي تمتد أهم

مناطقها بالمغرب انطلاقا من ناحية ركراكة إلى جنوب الأطلس الصغير، وكانت للموحدين أول محاولة على نطاق المغرب الإسلامي كله لتحويل القبائل الرعوية الى مجتمعات مستقرة تتولى خدمة الأرض وحماية الأمن بالمناطق الموكولة إليها بالمقابل³⁴.

أما بالنسبة للثقافة الديمغرافية بمنطقة الغرب الاسلامي فجميع المصامدة عند حديثها عن مختلف المدن تجمع بأنها كلها مدن عامرة، كما يمكن أن نستنتج من خلال بعض المعطيات بأن بعض المناطق كانت تتميز بكثافة ديمغرافية مرتفعة نذكر منها على سبيل المثال الشريط الساحلي الممتد من افريقية شرقا إلى طنجة، والذي يقول عنه ابن حوقل: "فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه"³⁵، وكذلك ما يذكر صاحب الاستبصار عن منطقة جبال غمارة عندما يقول بأنها من الجبال المشهورة وتسكنها قبائل كثيرة وهم أمم لا تحصى³⁶. غير أن هناك بعض المناطق التي لا تسعفنا نصوص الجغرافيين لتبين أهمية الحركة الديمغرافية بها، ولكن استنادا الى اشارات لها دلالة استهلاك اقتصادي يمكننا استنتاج ان هناك كثافة ديموغرافية مهمة، وهذا ما ينطبق على مدينة أغمات أوريكة عندما يتحدث البكري عن سوقها الأسبوعي "فسوق أغمات أريكة يقوم يوم الاحد بضروب السلع وأصناف المتاجر يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك"³⁷.

هذه إذن بعض الاشارات حول الكثافة الديمغرافية بمنطقة الغرب الاسلامي، والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها قولة ابن خلدون "بعض المغرب ساكنه من الامم لا يحصيهم الا خالقهم"³⁸. فهذه القولة تؤكد لنا مدى الكثافة كانت دائما مرتبطة بالأراضي الصالحة للزراعة أو بالقرب منها مما ينتج عنه استغلال الأرض وكثرة الإنتاج والتبادل.

ثالثا/ فما هي خصائص ومميزات الفلاحة بمغرب العصر الوسيط؟

1- الزراعة

تعتبر الزراعة موردا اقتصاديا بالنسبة لسكان منطقة الغرب الإسلامي، خاصة في المجال المتوسطي الذي يتميز بظروف طبيعية ملائمة نسبيا تساعد على الاستقرار والقيام بالنشاط الزراعي عكس المجال الصحراوي الذي يتميز بقساوة الظروف الطبيعية التي تشجع على حياة

الترحال، يقول ابن خلدون فيما يخص هذا النشاط "منهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز... فكان اختصاص هؤلاء البدو أمرا ضروريا لهم" ³⁹.

2- الإطار الطبيعي ومجال الانتاج

كل الرحال والجغرافيين يجمعون بأن منطقة الغرب الإسلامي غنية بإمكاناتها الطبيعية، ومن خلال إلقاء نظرة على الإطار الطبيعي للمنطقة يتضح أنه ينقسم إلى مجالين كبيرين: مجال متوسطي ومجال صحراوي، هذا بالإضافة إلى تنوع المجالات المناخية. وهكذا كان الإطار الطبيعي في المجال الأول أكثر ملائمة لظروف الانتاج وقيام الزراعة، بحيث خصوبة الأرض ووفرة الماء سواء منها الأمطار أو العيون أو الأنهار.

وفي هذا السياق، يقول ابن حوقل عن منطقة المسيلة: "...ولها واد يقال له سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق ولهم عليه كروم واجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم" ⁴⁰، وفي المقابل كان المجال الصحراوي يشكل أمامه الجفاف عائقا جعل الإطار البيئي غير ملائم للزراعة، ولم تتركز هذه الأخيرة إلا بالقرب من العيون والواحات.

يتركز مجال الانتاج في منطقة الغرب الإسلامي كما حدثتنا كتب الجغرافية في كل إفريقية والمغرب الأوسط ما عدا سواحل التل الأطلس الشرقي، وفي المناطق الموجودة حول تلمسان وفاس وسبتة ودرة وسهول تادلة وسجلماسة ⁴¹.

وكان مجال الانتاج كثيرا قرب المجاري المائية وبموازاة مع الأنهار حيث عرفت الزراعة انتعاشا كبيرا، ويتحدث الإدريسي على اعتماد سجلماسة على النهر الذي يمر بها ليسقي حقولهم وبساتينها قائلا: "وأما سجلماسة فهي مدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنان، رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر لها كثير الماء" ⁴². ويتكلم ابن حوقل عن مجال الانتاج الذي يوحد بين بلاد إفريقية إلى حدود مناطق طنجة قائلا: "وأما ما حاد أرض إفريقية إلى آخر أعمال طنجة عن مرحلة إلى عشرة مراحل فزائد وناقص، فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياغ والمياه" ⁴³.

من خلال هاتين القولتين للإدريسي وابن حوقل يمكن تقديم الملاحظات التالية:

مجال الانتاج في منطقة الغرب الإسلامي تركز في مناطق توفرت على إطار بيئي للإنتاج ملائم: خصوبة الأرض، ملائمة المناخ، توفر المياه، توفر العنصر البشري. أغلب مناطق مجال الانتاج خلال هذه الفترة ارتبط وانحصر في المناطق المحاطة بالمدن، مدن متصلة الرساتيق والمزارع والضيايع والمياه". تركز مجال الانتاج بالقرب من المدن وخصوصا في البساتين يؤكد أن عمل الانتاج كان منظما وبالتالي الرفع من مردودية الانتاج.

3- أدوات الانتاج

بدون شك أن أدوات الانتاج في منطقة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط كانت تقليدية وفقا لحجم ومساحة الأراضي الزراعية ولم تتجاوز الفأس والمحراث الخشبي، وقد توفرت المعطيات المرتبطة بأدوات الانتاج، وتعلق الأمر بتوفر العنصر البشري مما يؤكد على مردود مرتفع في حدود الامكانيات الإنتاجية المتوفرة:

مساحة فلاحية ضيقة، تركيز العمل الزراعي أساسا على جوانب الأودية وهذا معناه أرض منبسطة وتربة خصبة ومياه وفيرة، ويمكن القول إن أدوات الانتاج ساهمت في الرفع من حجم الانتاج على الرغم من عدم قدرته على تلبية الحاجيات الاستهلاكية للسكان، ومما يؤكد هذا المستوى من الانتاج شهرة بعض المنتوجات على مستوى مختلف أنحاء الغرب الإسلامي، يقول ابن حوقل في هذا الصدد وهو يتحدث عن البساتين المحيطة بمدينة البصرة "...عليها بساتين من شريقها ولها غلات كثيرة القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها"⁴⁴.

وتتفق جل المصادر أن وسائل السقي اعتمدت على مياه العيون والقنوات المجلوبة من الأنهار، بحيث تأكد أن مجال الإنتاج ارتبط حول المدن التي كان موضعها بالقرب من الأنهار كمدينة فاس التي كان بناءها على مشارف وادي فاس: "...ويشق بينهما نهر كبير يسمى بوادي فاس يدور عليها سور عظيم وتطردها جداول ماء لا تحصى... وفيها عيون كثيرة... وفيها أرحية الماء نحو 360 رحي... وربما وصلت الى 400، والنهر الذي يخترق مدينة فاس ينبعث من عين عظيمة ... وبينها وبين المدينة نحو 10 اميال في بسيط من الأرض"⁴⁵.

من خلال هذا النص نستنتج الوسائل المخصصة للسقي والتي هي: جداول الماء، عيون ثم أرحية (الناعورة)، هذه الوسائل التي ساهمت في الرفع من الانتاج بالمقارنة مع المناطق البورية التي تعتمد على مياه الأمطار.

ففي أحواز مراكش خلال العهد المرابطي عرفت وسائل السقي تطورا مهما على مستوى جلب المياه، فقد قام المهندس الأندلسي عبد الله ابن يونس بجلب مياه إلى مراكش لزراعة بساتينها واستخراجها بطريقة هندسية بحيث ترتفع من منخفض الأرض إلى أعلاه بغير روافع حسب تعبير الادريسي⁴⁶. وجاء الموحدون لاستكمال المجهودات التي قام بها المرابطون بحيث بدلت سبل كثيرة لتوفير المياه وتحسين وسائل السقي استنباطا من باطن الأرض.

أما في المجال الصحراوي فصعوبة الظروف الطبيعية المتمثلة في الجفاف جعلت مجال الانتاج محدود وبالتالي أدوات الانتاج التقليدية بسيطة لا تتعدى استعمال الفأس والدلو، يقول البكري عن مدينة أودغست: "هي مدينة كبيرة أهلة رملية... وحولها بساتين للنخل ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم..."⁴⁷ وعن حديثه عن منطقة زويلة يقول بأنها "كانت تتوفر على أشجار النخيل وحقول للحبوب وتتم عملية السقي بواسطة الإبل"⁴⁸.

من خلال ما جاء في النصين يتبين لنا بوضوح الملاحظات التالية:

- ضيق المجال الانتاجي في المجال الصحراوي.
- صعوبة الأرض والمناخ خلقت لنا أدوات ملائمة: الفأس، الدلو، السقي بواسطة الإبل.
- هذه الأدوات سواء في المجال الذي لائمتها الظروف الطبيعية أو التي وقفت كعائق أمامه سوف يعمل الانسان بواسطتها على ضمان حاجياتها الضرورية وبالتالي سوف تتنوع مزروعاته ومغروساته.

4- المنتجات

من خلال المعلومات التي تقدمها كتب الرحلات يستنتج بأن منطقة الغرب الإسلامي كانت منطقة فلاحية بسبب ملائمة الظروف الطبيعية وبالتالي يسجل هؤلاء اندهاشهم من شساعة السهول ووفرة الغابات والأشجار المثمرة وتنوع المجالات المناخية، وبالتالي تنوع المنتجات ووفرته. وتنقسم المنتجات إلى نوعين: المزروعات والمغروسات.

5- المزروعات

وتتمثل في الشعير والقمح والقطن والحنطة وقصب السكر وعرفت هذه المزروعات تطورا كبيرا خلال العهد المرابطي وتركزت في المناطق الموجودة حول تلمسان وسبتة وفاس وتادلة وسوس ودرة وسجلماسة، فقد عمت زراعة القمح والشعير والحنطة السهول الغربية ومرتفعات تادلة وتازة وسفوح جبال درن⁴⁹، وعرفت منطقة فضالة والبصرة زراعة الحمص والفل والبق⁵⁰، وعن مدينة البصرة يقول ابن حوقل: "ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها، ومن غلاتهم القمح والشعير والقطن وسهمهم في ذلك وافر"⁵¹ وتتوفر زراعة القمح والشعير بكثافة في منطقة بونة ووهران⁵²، وعن موسم الدجاج يوضح ابن حوقل أن القمح والشعير كان إنتاجه مرتفعا يفوق حاجيات السكان، وكان الفائض منه يحمل إلى البلدان النائية⁵³.

6- المغروسات

وتتمثل أساسا في الأشجار المثمرة التي ارتبطت بالبساتين المحاطة بالمدن، والمغروسات متنوعة منها: الزيتون والنخيل والتين والعنب والسفرجل والرمان والليمون والخواخوخ والتفاح. لقد أصبحت المحاصيل الرئيسية لبلدان المغرب الأدنى والأوسط هي الزيتون في مدينة قابس وصفاقس، ونقل المرابطون هذا المغروس إلى فاس ومراكش⁵⁴ ويأتي بعد هذا المحصول التمر الذي ازدهر في بلاد الزاب وقابس والبلاد الجريدية "وإنما سميت بلاد الجريد لكثرة النخيل بها، وهي مدن كثيرة وأقطار واسعة وعمائر متصلة كثيرة الخصب والتمر والزيتون والفواكه وجميع الخيرات"⁵⁵ واهتم أهل قفصة بالزهور وصناعة ماء الورد.

وعن منتوجات السوس يشيد الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى بجودتها وكثرتها فيتحدث الادريسي عن وفرة فاكهته على اختلاف أنواعها كالتين والعنب والبندق والسفرجل والرمان والليمون والخواخوخ والتفاح، وعلى الخصوص نوع من قصب السكر لا مثيل له⁵⁶. ويشير ابن حوقل الى وفرة وغزارة الخيرات بهذا الإقليم قائلا: "...وليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها... وفيها الأترج والجوز واللوز والنخل وقصب السكر والسمسم والقنب وسائر البقول التي لا تكاد تجتمع غيرها"⁵⁷ وازدهرت زراعة الفواكه بفاس ومكناس وجبل درن

مثل التين والعنب وعرفت درعة وسجل ماسة زراعة المخيل، وأكثر الموحدون من غرس الزيتون بالأراضي الموجودة بالقرب من فاس وتازة ومكناس على شكل بساتين، ومن أشهر البساتين في هذا العهد بستان المسرة وجنان الصالحة بأكدال مراكش⁵⁸.

7- الرعي

إذا كان سكان الواحات الصحراوية وبعضا من المناطق الجبلية يتعاطون لزراعة الأشجار فقط، وإذا كان البدو الصحراويون رعاة فقط، فإن القسم الأكبر من سكان السهول يجمعون زراعة الحبوب مع تربية البقر والخيول والغنم والماعز والجمال⁵⁹.

ويمكن أن نستنتج من هذه القولة أن هناك نوعين من الرعي في منطقة الغرب الإسلامي: هناك الرعي المختلط مع الزراعة والذي كان مجاله يشمل المناطق السهلية والجبلية، والرعي الشبه الصحراوي المرتبط بالمناطق الصحراوية. وقد عرف النوع الأخير اتساعا في المناطق الرعوية المرتبطة بالزراعة خصوصا في المغرب الأدنى والأوسط نتيجة للغزو الهلالي، ولم تخرج عن هذه المناطق سوى المناطق الحصينة التي احتفظت بزراعتها مثل تونس وسوسة وقسنطينة والمسيلة. ونفس الحالة كان يعرفها المغرب الأقصى عندما تلتجأ القبائل الممتنعة للرعي إلى المناطق السهلية الزراعية للبحث عن الكأ والتي كانت غالبا ما تدخل في صراعات مع القبائل المستقرة. وقبل أن تستقر القبائل المرينية كانت في إطار نشاطها الرعوي تتحرك ما بين وجدة وتازة إلى حدود فصل الخريف فتلتجأ صوب الجنوب بغرض قضاء فصل الشتاء ثم تعود في فصل الربيع إلى الشمال.

وإذا كان سكان المناطق السهلية يعتمدون في حياتهم على الزراعة والرعي فعن هذا العنصر الأخير شكل بالنسبة للقبائل الغير المستقرة عنصر حيوي للحياة "... ليس يعرفون حرفا ولا زرا ولا خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن"⁶⁰.

وهكذا كانت تربية الماشية هي الأخرى من أهم ميادين النشاط الفلاحي بمنطقة الغرب الإسلامي، فابن حوقل عندما يتحدث عن مدينة تاهرت مثلا يقول: "وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبرادين الفراهية"⁶¹ كما يصفها أيضا صاحب كتاب الاستبصار قائلا: "فهي كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي ومنها تجلت الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصتها وطيب لحومها"⁶².

إن مجال الغرب الإسلامي في العصر الوسيط يبقى معتمدا على التقسيم السياسي، ففي القرن 5هـ/11م، الحادي عشر الميلادي، يتمثل في المناطق التي بسط عليها المرابطون نفوذهم انطلاقا من الصحراء إلى الأوسط والأندلس، وفي القرن 6هـ/12م فإن مجال هذا الغرب هو ما سيطر عليه الموحدون (من المغرب الأقصى إلى الأندلس وطرابلس) أما مجاله في القرن 7هـ/13م هو ما بسطت عليه الجيوش المرينية نفوذها. إن الكثافة البشرية السكانية كانت دائما مرتبطة بالأراضي الصالحة للزراعة أو بالقرب منها مما ينتج عنه استغلال الأرض وكثرة الإنتاج والتبادل. إن الإنتاج الفلاحي بمنطقة الغرب الإسلامي كان يلبي حاجيات السكان، وهذا ما لمسناه من خلال المصادر من تزويد المناطق الريفية للمناطق والمدن الآهلة بالسكان بفائض إنتاجها الفلاحي سواء تعلق الأمر بالمنتجات على اختلاف أنواعها أو بالمواشي واللحوم، فابن حوقل عندما يتحدث عن موسم الدجاج بالمغرب الأوسط يقول: وبها من رخص الأسعار أيضا في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي ما يغرق غيرهم ممن يجاورهم، وبها من الأشجار والتمر والتين خاصة العظيم الجسيم ما يحمل منه إلى البلاد النائية"⁶³، فقد تعدى الإنتاج حدود منطقة الغرب الإسلامي إلى السودان والأندلس والمشرق، مما يؤكد لنا بأن الفلاحة المغربية في العصور الوسطى مرتبطة بالتجارة وثيق الارتباط، وذلك لبروز السمة المميزة للاقتصاد المغربي ابتداء من القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، والتي تتمثل في تلك الثنائية الاقتصادية، التجارة- الفلاحة⁶⁴، وأن كثيرا من المواد الفلاحية أصبحت بضائع أساسية في قائمة التبادل التجاري خاصة بالنسبة للتجارة الصحراوية.

الهوامش:

- 1- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، صور الأرض، بيروت، 1979، ص 77.
- 2- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق3-4هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص 34.
- 3- عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، بيروت، 1979، ص 98.
- 4- المصدر نفسه، ص 101.

- 5- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 64.
- 6- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال ق 6 هـ، دار الشروق، بيروت-القاهرة، 1983، ص 37.
- 7- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 101.
- 8- المصدر نفسه، ص 101.
- 9- الاصطخري أبو يوسف إبراهيم، المسالك والممالك، القاهرة، 1961، ص 70.
- 10- البكري عبد الله عبد العزيز المرسي، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1857، ص 81.
- 11- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، بيروت 1957، ص 583.
- 12- سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1965، ص 3.
- 13- سمير أمين، المغرب العربي الحديث، ترجمة: كميل ق داغر، دار الحداثة، بيروت، 1981، ص 1.
- 14- عبد العزيز بن عبد الله، معطيات الحضارة المغربية، دار الكتب العربية، الرباط، الطبعة الأولى، 1960، ج 1، ص 7.
- 15- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 1، الطبعة الثانية، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء 1984، ص 154.
- 16- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 158.
- 17- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 72.
- 18- ابن أبي علي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور، الرباط، 1973، ص 181.
- 19- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 210.
- 20- المصدر نفسه، ص 207.
- 21- المصدر نفسه، ص 211.
- 22- المصدر نفسه، ص 181.
- 23- البكري عبد الله بن عبد العزيز المرسي، المصدر السابق، ص 161.
- 24- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، 1984، ص 21.
- 25- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 84.
- 26- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين، ط 1، دار النشر المغربية، دار البيضاء، 1982، ص 58.
- 27- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 93.

- 28- مصطفى أبو ضيف أحمد، المرجع السابق، ص 64.
- 29- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 21_ 27.
- 30- المصدر نفسه، ص: 40.
- 31- مصطفى أبو ضيف أحمد، المرجع السابق، ص 58.
- 32- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 58.
- 33- ابن أبي علي زرع علي الفاسي، المصدر السابق، ص 166.
- 34- ابراهيم حركات، المرجع السابق، ص 239.
- 35- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 83.
- 36- مجهول، الاستبصار في غرائب الامصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، 1958، ص 180.
- 37- البكري عبد الله بن عبد العزيز المرسي، المصدر السابق، ص 153.
- 38- عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 102.
- 39- ابن خلدون، المقدمة، جزء 1، بيروت، 1967، ص 242.
- 40- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 85.
- 41- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 194.
- 42- الادريسي أبو عبد الله محمد الشريف السبي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة ليدن، 1864، ص 60.
- 43- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 83.
- 44- المصدر نفسه، ص 81.
- 45- مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 180.
- 46- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 180.
- 47- البكري عبد الله بن عبد العزيز المرسي، المصدر السابق، ص 158.
- 48- المصدر نفسه، ص 10.
- 49- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 195.
- 50- المرجع نفسه، ص 195.
- 51- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 81.
- 52- المصدر نفسه، ص 77.
- 53- المصدر نفسه، ص 77.
- 54- عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص 195.
- 55- مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 150.
- 56- الادريسي أبو عبد الله محمد الشريف السبي، المصدر السابق، ص 61.

- 57- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص 90.
- 58- ابراهيم حركات، المرجع السابق، ص 154.
- 59- عبد القادر جغلول، الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، الطبعة الثالثة، دار الحداثة، بيروت، 1982، ص101.
- 60- البكري عبد الله بن عبد العزيز المرسي، المصدر السابق، ص164.
- 61- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص86.
- 62- مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص179.
- 63- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي البغدادي، المصدر السابق، ص77.
- 64- الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص34.